مجلة المحترف لعلوم الرياضة و العلوم الانسانية و الاجتماعية

المجلد (12) العدد (03) السنة (2025)

الصفحة 18–34

الأنساق الثقافية المضمرة في الخطاب القصصي

بكتاب كليلة ودمنة

سفراني ريمة ، أخضري عيسى

مخبر : اللغة العربية وآدابها / كلية الآداب و اللغات

جامعة عمار ثليجي الأغواط الجزائر.

r.sofrani@lagh-univ.dz

جامعة زيان عاشور الجلفة ، الجزائر ،

a.akhdari@univ-djelfa.dz

معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2025/09/08
تاريخ القبول:2025/11/24

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

الملخص: ترمي هذه الدّراسة إلى تقديم رؤية جديدة حول أحد أهم علامات التُّراث الأدبي العربي وهو قصص كليلة ودمنة ، وذلك بالكشف عن أنساق مضمرة وخفيَّة حملها معه باستمرار طوال ما مضى من الدهر ، فأفلتت من الوعي بها وتحليلها ونقدها ، وهذا ما تسعى هذه الدّراسة إلى تداركه ، بإبراز الوجه الآخر لهذا الخطاب ، بما حمله من قيم هيمنة لبعض القوى ، وهذا باعتماد رؤية النَّقد الثَّقافي في تبني مفهوم النَّسق المضمر داخل الخطابات الكبرى ، هذه المواصفات التي تنطبق على قصص كليلة و دمنة و التي تعد بالكثير من الخبايا في باطنها .

الكلمات المفتاحية: الأنساق الثَّقافيَّة – الخطاب القصصي – كتاب كليلة و دمنة

ABSTRACT

This study aims to present a new perspective on one of the most important landmarks of Arabic literary heritage: the *Kalila wa Dimna* stories. It seeks to uncover the hidden and implicit patterns that have continuously accompanied this work throughout history, yet have largely escaped awareness, analysis, and critique. The study endeavors to address this gap by revealing the other side of this discourse—specifically, the values of dominance imposed by certain powers. This is achieved through the lens of cultural criticism, particularly by adopting the concept of the "implicit pattern" within major discourses—criteria that clearly apply to *Kalila wa Dimna*, a work rich with underlying secrets.

Keywords: cultural pattern - narrative speech.**خطأ! مرجع الارتباط التشعبي غير صحيح.-**

1. مقدمة:

يُعد مفهوم النَّسق الثقافي من أهمّ آليات استنطاق النُّصوص ، باعتباره أبرز مكتسبات النَّقد الثَّقافي ، هذا الأخير الذي رفع مستوى النَّقد من نقد ظاهر النص ونقد مؤلفه إلى نقد " للمتن الثَّقافي والحيل النَّسقيَّة التي تتوسَّل بها الثَّقافة لتعزيز قيمها الدَّلالية " (عبدالله الغذامي ،2005 ، ص 82) ، إنَّه " كشفٌ عن المخبوء من تحت أقنعة البلاغي /الجمالي " (عبد الله الغذامي ، 2005 ، ص 84) خلف كل خطاب جمالي بليغ جماهيري متعدّد الدَّلالة بين الظَّاهر والباطن .

إنَّ هذه المواصفات المذكورة آنفا لا تنفك تنطبق على قصص كليلة ودمنة الَّتي تنتمي إلى " المؤسَّسة الثقافية الرسمية فكاتبه (مترجمه) هو أحد فحول الخطاب الثقافي " (عبدالله الغذامي ، 2005 ، ص 58) ، ممَّا يستوجب ضرورة الوقوف عنده مليًّا و التَّساؤل عمَّا يضمره خلف ظاهره ؟ وما الَّذي أفلت من الكشف عنه عبر ما مضى من دراسات نقديَّة؟ .

حيث إنَّه رغم إشارة صاحبها إلى ازدواجية المعنى بها حين قال : " يكون ظاهره لهوا للخواص و العوام ، وباطنه رياضة لعقول الخاصة " (ابن المقفع ،1982 ، ص 39)، فإشارته هذه لا تتعدَّى كونها حديثا عن التَّسلية الحاصلة من ظاهر الخطاب بما يحتويه من قصص على ألسنة الحيوانات ، أما باطنه فيقصد بها صاحبه العبر و الحكم المستخلصة من تلك القصص ، وهذا ما تمت الإشارة إليه في قوله : " فلم يزل هو وتلميذه يعملان الفكر فيما سأله الملك، حتى فتق لهما العقل أن يكون كلامهما على لسان بهيمتين. فوقع لهما موضع اللهو والهزل بكلام البهائم. وكانت الحكمة ما نطقا به. فأصغت الحكماء إلى حكمه وتركوا البهائم واللهو " (ابن المقفع ،1982 ، ص 40) .

غير أن البحث فيما وراء تلك الحكم يفضي إلى الكشف عن أنساق مضمرة تحيل إلى مدى تجذر الثقافة وهيمنتها على تشكيل هذا الخطاب وتقويضها لظاهره ، فتعددت الصور المشكلة لهذا الخطاب القصصي ، وتعددت معها الأنساق الثقافية المضمرة خلفها .

1.2صورة الملك :

إن الحديث عن صورة الملك الَّتي رُسمت للملك في كتاب كليلة ودمنة ، يحيل إلى ضرورة الالتفات إلى ما ورد في الباب الأول في الكتاب ، و هو "باب الأسد والثور" حيث إنَّه من أول الملاحظات أنَّ للأسد أوصافا تمثَّلت في أنَّه كان متكبّرا لا يعتدَّ إلاَّ برأيه ،كما لم يفت السَّارد أن يقدّمه بهيئة القوَّة الظاهرية والضعف الداخلي ، فقد ورد أنه شعر بالرعب حين سمع خوار الثوار وأنه لم يرى ثورا في حياته أبدا ، بل وخشي أن ينتبه جنده إلى خوفه هذا .

إن مما يدفع إلى هذا الاعتقاد هي سلسة المساوئ التي تلي ذلك والمعقودة حول الأسد ، فمما أُظهر على هذا الأسد /الملك هو الرهبة والجزع الدائمين حتى من الأصوات ، ومن ذلك خوفه من خوار الثور.

ومن صفاته الاغترار سريعا بالكلام المنمق كما حدث له عند سماع كلام دمنة لما دخل عليه ، ومما قيل على لسان الأسد /الملك في اجتماع له مع جلسائه : " إنه ينبغي للسلطان ألا يَلِجَّ في تضييع حقّ ذي الفضل والمروءة ولا وضْع منزلته، وأن يَستدرك ما فاته من ذلك ولا يغرَّه أن يرى من صاحبه المفعول به ذلك رضًا، فإنَّ الناس في ذلك رجلان : أحدهما طباعه الشراسة، فهو كالحيَّة التي إن وطئها الواطئ فلم تلدغه، لم يكن جديرًا أن يعود لوطئها ثانية، وآخر طباعه السهولة واللين، فهو كالصندل الذي إذا أفْرِط في حكِّه صار حارّا مؤذيًا " (ابن المقفع ،1982 ، ص 90).

وعليه فإنه يتقرر في هذا الخطاب تسليم الأسد / الملك بتضييعه لحقوق ذوي الفضل كأمر بديهي وبالتالي فكل الذي ينبغي الحرص عليه هو عدم الإلحاح في ذلك أو المبالغة ، بل إن صيغة هذه العبارة التي تتضمن ما الأجدر بالسلطان فعله وهي " ألا يلج " ، تبطن أن تضييع الحقوق أمر يأتيه السلطان عن قصد وهواية ، فقد جاء في لسان العرب أن من معاني " لج في الأمر : تمَادى عَلَيْهِ وأَبَى أَن يَنْصَرِفَ عَنْهُ (...) و الملاجَّةُ : التَّمَادِي فِي الخُصومةِ" .(ابن منظور ،1992 ، ص ص 353-354)

ومما يلفت النظر أيضا في هذا القول ، التصنيف الذي انتهجه الأسد في تصنيف ذو الحقوق، فهم صنفان : الأول حقود منتقم لا ينسى ثأره كالحية ، بل الأكثر من هذا استعمال لفظ "الوطء" وهو الدوس بالرجل ، فكأن السلطان يعلم أن تضييع الحقوق على أصحابها هو بمثابة الدوس عليهم ، أما الصنف الثاني فهو متساهل متسامح لكن ذلك لا يمنع أن ينقلب إلى النقيض كالصندل البارد ، وفي استعمال لفظ " أفرط " دليل على قصدية السلطان في التمادي مع هذا الصنف السهل في تضييع حقوقه لتساهله ، مما يعني على كل حال أن السلطان دائم التفريط في حقوق الآخرين ، ودائم التوجس منهم أيضا سواء أكانوا من الصنف الأول أو الصنف الثاني، ولا يمكن اعتبار أصحاب الحقوق سوى " العامة " أو ليست العامة كلها حقوق على السلطان كالعدل والحماية وغيرها...

وفي سياق الحديث عن التوجس الدائم الذي يعاني منه الأسد / الملك ، فإنه بعد نيل دمنة – وهو من يمثل شخص المثقف هنا – لمراده وتقربه من الأسد ، فإنه قد تنبه لسبب فتور نشاطه مؤخرا وهو سماع خوار الثور رغم كراهية الأسد أن يعرف دمنة ، فهو متوجس منه أيضا ، حيث " ... فلما استأنس دمنة بالأسد وخلا به، قال :إني قد رأيتُ الملك أقام منذ زمان بمكان واحد لا يبرح منه، ففيم ذلك؟ قال له الأسد، وكَرِه أن يعلم منه دمنةُ جُبنًا :لم يكن ذلك لبأس. فبينما هما على ذلك إذ خار الثور خُوارًا شديدًا، فهيَّج الأسدَ على أن يُخبِر دمنة بما في نفسه " (ابن المقفع ،1982 ، ص 91)، وسيتجلى توجسه الكبير من دمنة "المثقف" بوضوح لاحقا .

و على كل فإنه ما كان من دمنة إلا استغراب هيبة الأسد من الصوت والسخرية منه قائلا : " ليس الملكُ بحقيقٍ أن يبلغ منه هذا الصوت أن يدع مكانه، فإن السكْر الضعيف آفتُه الماء، والشرفَ آفتُه الصَّلَف ، والمودَةَ آفتُها النميمة، والقلب الضعيف آفتُه الصوت والجلبة "(ابن المقفع ،1982 ، ص 92) ، وكأن دمنة استشف في رهبة الأسد من الصوت تنازلا عن سلطانه وملكه ، فكيف يعقل أن يخاف ملك الغابة وما عليها من المخلوقات من مجرد صوت ،

و طبعا هذا يكشف كما ذكر سابقا عن الضعف الداخلي رغم القوة الظاهرية التي يراها المثقف والحكيم الأول في الملك عموما وبالتأكيد المثقف الأول ما هو إلا أحد الثلاثة : المؤلف الأصلي أو المترجم الأول أو " ابن المقفع" نفسه المشكل النهائي الخطاب .

ومن علامات التوجس الذي يعاني منه الأسد هو ما تمت الإشارة إليه سابقا عن ندمه على البوح لدمنة بخوفه من الصوت وإرساله ليستطلع صاحبه ، فقد ذهبت به المخاوف كل مذهب " فلما فصل دمنة من عند الأسد فكَّر الأسد في أمره ، فندِم على إرساله ، وقال في نفسه : ما أصبتُ بائتماني دمنة على ما ائتمنته، ووجَّهته فيه " (ابن المقفع ،1982 ، ص 92)، بل إنه قد توهم أن دمنة ربما حقد عليه لطول مكوثه ببابه دون أن يلتفت الأسد إليه ، وأنه ربما حمله هذا على خيانته وإعانة عدوه ، و لربما كان صاحب الصوت أقوى منه فيشايعه دمنة عليه ، بل الأكثر من ذلك أن الأسد يقر بأن دمنة على علم بنقيصته " وهي الرهبة " فيعين عدوه عليه بسهولة فيقول في نفسه : " وإنَّ دمنة داهٍ أريب، وقد كان ببابي مطروحًا مجفوًّا، فلعله قد احتمل عليَّ بذلك ضِغنًا، ولعل ذلك يدعوه إلى أن يخونني ويبغي عليَّ، ولعله يُصادف صاحب الصوت أقوى مني وأعظمَ سُلطانًا فيرغب فيما عنده، ويميل عليَّ معه فيدلَّه على عورتي، فلم يزل الأسد يحدِّث نفسه بذلك ويراجعها فيه حتى استخفه ذلك وقام من مجلسه، فجعل يمشي وينظر إلى الطريق حتى رُفِع له دمنة من بعيد مُقبِلًا وحده، فاطمأن ورجع إلى مكانه كراهةَ أن يظن دمنة أنَّ شيئًا أقلقه وأزعجه من مكانه " (ابن المقفع ،1982 ، ص 93).

هنا نجد أن رأي الملك بالمثقف يتمثل في اعتباره تهديدا كما يعتقد بطمع المثقف بمكانته وربما حسده عليه ، كما أن الملك قد افترض سريعا أن صاحب الصوت عدو وذلك لتوجسه الدائم كما أقره هو بعيبه ونقيصته وهي الرهبة ، كما يقر أن ما يجمع الآخرين حوله هو قوة سلطانه ، ولابد من الإشارة كيف أن السارد يلح على إظهار الملك/الأسد بصورة الضعف والجبن فهو غير قادر على الثبات في مكانه لقلقه وغير مبتعد في مشيه لخوفه ، ورغم إلحاح دمنة على طمأنته إلا أنه لا يأبي سوى التخوف والرهبة ، بعد عودة دمنة من عند الثور يستقبله الأسد بكل تلهف و تطلع سائلا إياه عن حال وشدة صاحب الصوت ، فيخبره دمنة بأنه مجرد ثور لا شدة له ، غير أن الأسد يأبى الطمأنينة و يخبره بأنه يعتبر دمنة مثل الحشيش الضعيف الذي لن تضره الريح الشديدة و مشبها نفسه بالشجرة العظيمة التي تهزمها هذه الريح / الثور ، حيث استصغر هنا شأن دمنة وازدراه بتشبيهه بالحشيش الضعيف لأنه لا يعي خارج منطق قوة السلطان كما مر سابقا .

وبالنسبة للتوجس الذي يعاني منه الأسد / الملك فانه كنتيجة حتمية لرسوخه في طباعه بالإضافة إلى سوء الظن والبطش ، فإن قتله للثور لاحقا لن يكون بسبب نميمة دمنة بقدر ما هي استعداد مسبق لتقبلها ، وما كان من دمنة لعلمه "بنقيصته" تلك إلا أن استثارها بكلامه بل إنه حين أبدى الندم على قتله للثور ، قام دمنة بمواساته ببضع كلمات سرعان ما رضي الأسد عن ذلك أي فعلته .

هذا عن صورة الملك في باب الأسد والثور ، وهي صورة استمرت نسقيتها في باقي القصص ولذلك اكتفينا بمقاطع منها ، تبرهن عليها وهي متمثلة في الاستبداد ، وضعف الرأي ، والتوجس الدائم ، والغدر ، والبطش والحاجة لأصحاب العقول / المثقفين لأنه لا رأي له :

- في سياق تحميل دمنة للثور على الأسد قال : " إنَّ إرادة الأسد لما يريد ليس لشيءٍ مما ذكرت من تحميل الأشرار ولا غير ذلك، ولكنه الغدر والفجور، فإنه جبَّارٌ غدَّارٌ، أوَّلُ طعامه حلاوة، وآخره مرارة، بل أكثره سمٌّ مميت " (ابن المقفع ،1982 ، ص 112).
- و أن مصاحبة السلطان كمصاحبة الحية في بيتها و الأسد في عرينه و السباحة في ماء به تماسيح مهدد في كل آن بهجومها عليه (ابن المقفع ،1982 ، ص 121).
- و حكم أم الأسد على ابنها بضعف رأيه (ابن المقفع ،1982 ، ص 151).
- و مما ورد " قُبحًا للملوك الذين لا عهدَلهم ولا وفاءَ ! وويلٌ لمن ابتُلِيَ بصحبتهم ! فإنهم لا حميمَ لهم ولا حريمَ، ولا يحبُّون أحدًا ، ولا يكرُم عليهم إلَّا أن يطمعوا عنده في غَناء فيقرّبوه عند ذلك ويكرموه، فإذا قضوا منه حاجتهم فلا وُدَّ ولا حِفاظَ ، ولا الإحسان يجزون به ، ولا الذنب يَعفون عنه ، الذين إنما أمرهم الفخرُ والرياء والسمعة ، الذين كلُّ عظيمٍ من الذنوب يركبونه، وهو عندهم صغير حقير هيّن "(ابن المقفع ،1982 ، ص 282).
- والقول بأن الملوك قوامهم الانتقام و يعتبرون ذلك فخرا (ابن المقفع ،1982 ، ص 284).
- " يستطيع خدمة السلطان رجلان لست بواحد منهما : إما فاجر مصانع ينال حاجته بفجور ويسلم بمصانعته ، و إما مغفل لا يحسده أحد ، فمن أراد أن يصحب السلطان بالصدق والعفاف لا يخلط ذلك بمصانعة فقلما يستقيم له صحبتهم " (ابن المقفع ،1982 ، ص 291)، و مادام الأمر كذلك فأين يمكن تصنيف السلطان مادام لا يستطيع خدمته إلا هذان الصنفان ؟ .
- وفي ساعة واحدة يلحق من يصاحب السلطان من الخوف و الأذى مالا يلحق بسواه حياته كلها (ابن المقفع ،1982 ، ص 291).
- و كون الملوك أكثر الناس حاجة إلى التروي و ذلك لأن قوام أخلاقهم عدم التثبت عند الغيظ و سرعة الغضب (ابن المقفع ،1982 ، ص 294)، لكونهم ضعاف الرأي كما أثبتت ذلك نسقية صورتهم في ثنايا الكتاب و أنهم عند الغضب يفقدون القدرة على التمييز بين ضغير الأمور وكبيرها .
- ورد في الكتاب دعوة صريحة لتكريس الطبقية و الحرص عليها حيث ورد ما يلي:" رأس الحزم للملك معرفة أصحابه وإنزاله إياهم منازلهم ، واتهام بعضهم على بعض" (ابن المقفع ،1982 ، ص 294)،

حيث تحمل دعوة لتكريس الطبقية ، والذي سيتجلى بعد قليل بوضوح أن ما هذه الطبقية إلا وسيلة لحفظ الملك لا من أجل إحقاق الحق.

- ، و سيتجلى بعد قليل بوضوح أن ما هذه الطبقية إلا وسيلة لحفظ الملك لا من أجل إحقاق الحق.
- وهناك نصيحة أخرى قوامها إلقاء اللوم على الولاة في عدم حرصهم على تجاوز الرعية لطورها وطبقتها – ألوم و أسوأ تدبيرا لان تنقل الناس من بعض المنازل إلى بعض صعوبة ومشقة شديدة فيه – وكأن هذا الأمر فيه تحد بنظر السارد لقدرهم أي لملوكهم – ثم إن الأشياء في ذلك تجري على منازل حتى تنتهي إلى الخطر الجسيم من مضادة الملك في ملكه " (ابن المقفع ،1982 ، ص 331).

والملاحظة هنا تمجيد الطبقية وتكريسها ، والعتب على الولاة في عدم حرصهم عليها ، والعلة التي بدء بذكرها هي الصعوبة و المشقة ، غير أنه سرعان ما تظهر العلة الحقيقة من تكريس الطبقية وهي ليست الخوف من الفساد ، بل الخوف على الملك المراد لذاته ، وبالعودة إلى القصة الأولى وهي قصة دمنة الطموح الذي قتله السارد لإحقاق العادلة السابقة وهي عدم إباحة الالتقاء بين الطبقات فدمنة المثقف قد تطلع إلى منزلة أعلى من منزلته ، بل اعتبر نفسه هو ومن مثله / المثقفين الأجدر بهذا التطلع ، و ربما لهذا الطموح لا سواه قتل بأسوء طريقة .

وفي الأخير هناك ملاحظة عامة على جميع القصص فيما يخص المواضع التي ورد فيها ذكر القضاء والقدر وقوتهما " الغالبة " أنها جاءت على لسان الملوك وحدهم وذلك من أجل :

1- تبرير سوء التقدير : مثلما بررت لنفسها الحمامة المطوقة / سيدة الحمام سوء تقديرها .

2- الخداع : وهو ما رآه الملك في سياق محاولته خداع الطائر للثأر منه ، وذلك بمحاولة إقناعه أن ما حدث لفرخه من ضرب و موت على يد ابنه كان قضاء وقدرا الأمر الذي دفع الطائر الى التنكيل بابن الملك .

أما الموضع الآخر فهو أكثر إثارة للعجب حيث قال الفيلسوف بيدبا :"كما أن الإنسان لا يبصر إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنيه ، كذلك العلم إنما تمامه بالحلم والعقل والتثبت غير أن القضاء والقدر يغلبان كل شيء "(ابن المقفع ،1982 ، ص 313) ، هذه المقولة والتي قدمها الفيلسوف ينفي بعضها بعضا ، ويناقض نصفها الثاني نصفها الأول ، حيث مدحت التجربة ومدح التفكير ثم تم سلبهما جدواهما بجعل القضاء والقدر المتغلب عليها .

3- القول بالقضاء والقدر لتبرير الحصول على الملك :

و هو ما جاء في قصة ابن الملك و أصحابه (ابن المقفع ،1982 ، ص 314 وما بعدها)-حيث محورية الملك في العنوان – وذلك بالبدء بأنه كان هناك مجموعة من الفتيان ابن ملك وابن تاجر وابن أحد الأثرياء /شريف ، وابن مزارع /أكار– نجد هنا الطبقية في الترتيب من الأعلى إلى الأسفل – حيث تصاحبوا وترافقوا مع بعضهم البعض و جمعهم درب واحد ، ثم بدؤوا بالتأمل في حياتهم السابقة ، ليحدد بعد ذلك كل منهم سبيل نجاحه في حياته ، فكان رأي ابن الملك أن القضاء و القدر هو قوام الدنيا، أما ابن التاجر فذهب إلى الحكم بأن العقل هو السيد المطلق – ولاحقا

سيتبدى لنا ما هو مفهوم العقل لديه – ، أما ابن الشريف/ الثري فأخبرهم أن الجمال أفضل من كل ما ذكروا ، ليذهب ابن الأكار/المزارع إلى كون الاجتهاد أفضل من ذلك كله .

ولما اقتربوا من إحدى المدن ، طلبوا من ابن الأكار أن يستعمل اجتهاده في الحصول على قوت يوم واحد له ولأصحابه ، و هنا تقديم الطبقة الأدنى عند الامتحان والصعاب ، فقصد الغابة واحتطب وباع ذلك الحطب بدرهم ، ليكتب بعد ذلك على باب المدينة أن الاجتهاد ليوم واحد تبلغ قيمته نصف درهم ، وفي الغد ، طلب الأصحاب من ابن الشريف/ الثري أن يستعمل جماله للحصول على قوت يومهم ذاك – لاحظ تصاعد التراتبية عند الصعاب من الأدنى إلى الأعلى – " فغادرهم غير أنهم كان يحدث نفسه بأنه لا يجيد أي عمل فكيف سيحصل على القوت ، فشعر بالحزن و قرر عدم الرجوع إليهم وغط في النوم مستندا احدى الأشجار ، وفي تلك الأثناء مرت امراة أحد الأثرياء من تلك المدينة فأعجبت به ودعتها إلى منزلها ليقضي يوما كاملا هناك معها لتكافئه في الأخير بخمسمائة دينار ، فأخذ النقود وكتب على باب المدينة أن " جمال يومٍ واحدٍ بخمسمائة دينار" .

و في الصباح كانوا قد قرروا أنه دور ابن التاجر، فطلبوا منه الذهاب و الكسب باستعمال عقله و تجارته ، و لم يطل الأمر حتى عثر على سفينة تجارية عظيمة قد رست بالقرب من شط المدينة تحمل سلعا ، فأقبل الناس عليها ليشتروا منها ، ثم أعرض كثير من التجار عنها لعلها تكسد سلعتها ، فيبيعهم أصحابها غدا تلك السلع بأقل الأثمان ، فاستغل ابن التاجر ماسمعه واشترى من أصحاب السفينة سلعهم بمائة ألف دينار ، فلم علم بذلك التجار أضافو له ربحا قدره مائة ألف درهم ، فأخذ منهم النقود و أشار عليهم بصاحب السفينة ليشتروا منه، ليكتب بعد ذلك على باب المدينة أن عقل يوم واحد يساوي مائة ألف درهم .

وفي الأخير حان دور ابن الملك ، ليتصادف ذهابه إلى المدينة مع جنازة ملكها ، ليسجنها بعد ذلك البواب لاستنكاره إياه و عدم إظهاره الحزن على وفاة الملك ، ليقضي ليلته في السجن و في الغد اجتمع السكان ليبحثوا في أمر من يحكمهم الآن ، ذلك أن ملكهم المتوفي بلا أقارب ، و انتهوا إلى اختيار ابن الملك حاكما عليهم بعدما سمعوا قصته وكيف أن أخوه الأصغر غلبه وأخذ الملك منه بعد وفاة أبيهما.

والملاحظة هنا أن منطق الأهلية في الحكم هو القرابة والنسب لا الكفاءة ، و هو ما ذكر في بداية الكتاب في حديث كليلة عن أسس اختيار السلطان لمن سيكرمهم ويفضلهم عمن سواهم .

وبالعودة إلى حكاية ابن الملك فها هو بعد نيله الحكم – لمجرد كونه من عائلة ملكية – وفرحة الرعية بتنصيبه ، وجالوا المدينة به ، فرأى ما كتبه أصحابه سابقا ،'' فأمر'' بأن يكتب " أن الاجتهاد والجمال والعقل وما أصاب المرء من خير و شر فبقضاء وقدر " ، ثم أرسل إلى أصحابه ، وأشرك صاحب العقل مع الوزراء ، وضم صاحب الاجتهاد إلى أصحاب الزرع – أي الفلاحين – حيث ازدراء هذه الطبقة المجتهدة منذ بداية القصة .

ثم إنه بعد ذلك " جمع علماء أرضه وذوي الرأي " ليملي عليهم منطقه حول عدم جدوى الاجتهاد والعقل ولا شيء فاعل سوى القضاء والقدر بمفهوم الاتكال والاستسلام ، فقال لهم : " أما أصحابي فقد استيقنوا أنَّ الذي رزقهم لله من الخير إنما كان بقدَرٍ– ومن ثمة فالآن دور هؤلاء العلماء والحكماء ليقتنعوا — فأعان عليه ببعض ما ذكروا ، وأمَّا أنا فإنَّ الذي منحني لله ورزقني و وهبه لي لم يكن من الجمال ، ولا من العقل، ولا من الاجتهاد — والملاحظة هنا أيضا تأخير الاجتهاد مرة أخرى — وما كنت أرجو —— إذ طردني أخي – أنْ أصُيب هذه المنزلة، ولا أن أكون بها ؛ لأنِّي قد رأيتُ من أهل هذه الأرض مَن هو أفضل منِّي جمالًا وحُسنًا، وعلمت أنَّ فيها مَن هو أكمل منِّي عقلًا ورأيًا وأشدُّ اجتهادًا ، فساقني القضاء والقدر إلى أن اغتربت فمُلِّكت أمرًا قد علمه لله وقدَّره " (ابن المقفع ،1982 ، ص 316) و قصة ابن الملك وحصوله على الملك أمر لا علاقة له بالقضاء والقدر بقدر ما هو متعلق باستعداد ذلك العرف الثقافي لقبول أي شخص ليكون ملكا حتى ولو كان "غلاما"، المهم يكون ذا قرابة أو نسب بالملك ولا تهم كفاءته .

2.2 صورة المثقف :

تتجلى بوضوح في ثنايا الكتاب جدلية العلاقة بين المثقف والحاكم ، لكن قبل التطرق إلى ذلك ، لا بد أولا من التوقف لدى صورة المثقف ذاته ، أولا في باب الأسد والثور ، حيث يظهر المثقف في شخصيتي الأخوين كليلة ودمنة واللذين قدمهما الخطاب على أنهما من أصحاب الدهاء مع خصلتي العلم والأدب ، غير أن الذي يميزهما عن بعضهما أن دمنة طموح متطلع ، أما كليلة فيخاف الطموح ويراه ثورا خاصة ما تعلق بصحبة الملوك ، وبالنسبة لدمنة لم يكن الأمر كذلك وكان يرى أن الرضا بالمنزلة الحالية يجعله مثل الكلب الجائع الذي يفرح بالعظم اليابس ، بل أكثر من ذلك أن هذا المثقف الممثل في شخص دمنة يرى أنه يرى أنه الأكثر استحقاقا من سواه للمنزلة العليا ، ليس لإرادته المنفعة والخير للآخرين أي للعامة ، بل لأنه مثقف وكفى .

بل من الراجح أن ما يقصده دمنة من المنزلة الرفيعة ، واستحقاقه دون الآخرين لها هي " الملك" أليس هو القائل في سياق الحديث ذاته : " أريد أن أتعرض للأسد عند هذه الفرصة ، فإنه ضعيفُ الرأي ، وقد التبس عليه وعلى جُنده أمرُهم ، فلعلِّي أدنو منه وأصيب حاجتي عنده " (ابن المقفع ،1982 ، ص 86)، وهنا تتجلى جدلية العلاقة بين المثقف والحاكم في ذلك الوقت ، فدمنة يسخر من الأسد لضعف رأيه ، ويقرر أن يستغل هذا الضعف ، أما الآخر وهو كليلة فقد تقرر لديه أن مبدأ القرابة هو ما يحكم اختيار السلطان لحاشيته .

إن في استعمال لفظ " السلطان " إشارة إلى صدق هذا القول على الحكام العامة آنذاك ، وأيضا أن الحاشية الواقفين على بلاطه ليسوا من ذوي الكفاءات بل من ذوي القربى — سواء أكانت قرابة معنوية أو قرابة نسب حقيقة — بل إن المعني بهذا هو السلطان ذاته وهذا ما سيظهر لاحقا ، وقد صادق بعد ذلك دمنة على كلام أخيه بأن ضرب له مثلا عن السلطان عامة أيضا بقوله :" يقال بأن مثل السلطان في ذلك — تقريب ذوي القربى لا ذوي الكفاءة — مثل شجر الكرم الذي لا يتعلق بأكرم الشجر ولكن بأدناها منه " (ابن المقفع ،1982 ، ص 87).

ليسأل هنا كليلة عن الكيفية التي ستوصله إلى منزلة عند الأسد وهو ليس من ذوي القربى مادام أن الكفاءة ليست هي الموصولة إلى الأسد أو " السلطان" ؟ ويجيب دمنة أن ذلك يكون بالتملق والتصنع والتذلل للسلطان لبلوغ الغايات بل أكثر من ذلك فعل ما يراد لذاته من أجل غايات أخرى كالرفق بالناس وكتم السر ، وبالتالي التوقف عن إتيانها بعد بلوغ الغايات حيث قال : " (...) وقد قيل :لا يواظب أحدٌ على باب السلطان ويطرح الأنَفة ، ويحمِل الأذى ، ويُظهر البِشر، ويكظِم الغيظ ، ويَرفُق في أمره إلا خَلَص إلى حاجته منه " (ابن المقفع ،1982 ، ص 87)، ليصل بعد ذلك كليلة إلى جوهر الحديث ويسأل أخاه عما يريده من بالضبط من الحظوة لدى الأسد ، فيجيبه دمنة جوابا يقطع كل طريق للشك حول تلك القيم التي اعتمدها خطاب المثقف سواء أكان المؤلف أم المترجم الأول أم ابن المقفع ، يجيب دمنة : " لو قد دنوت من الأسد وعرفت أخلاقه ، رفقتُ في متابعته وقلة الخلاف عليه – حيث التملق هنا – ثم انخططتُ في هواه ، فإذا أراد أمرًا هو في نفسه صوابٌ زَيَّنته له وشجَّعته عليه – لاحظ التملق أيضا والمصانعة – حتى يعمل به ويُنفِذَ رأيَه فيه ، وإذا همَّ بأمرٍ أخاف ضَرَّه إياه بصَّرته ما فيه من الضرر والشَّيْن– هنا منطق الوصاية – بأرفق ما أجد إليه السبيل وألينه ، فإنّي أرجو أن يرى مني في ذلك أفضل مما يرى من غيري، فإنَّ الرَّجُل الأديب الأريب الدَّهِيَّ لو شاء أن يُبطل الحق ويُحِقَّ الباطل أحيانًا لفعل (...) فإذا هو عَرف نُبلي وكمال ما عندي كان هو الذي يلتمس إكرامي وتقريبي " (ابن المقفع ،1982 ، ص 87).

بعد ذلك يعود كليلة إلى نصحه بقوله : " فإني أحذِّرك صحبة السُّلطان، فإنَّ في صحبة السلطان خطرًا عظيمًا، وقد قالت العُلماء : أمورٌ ثلاثة لا يجترئ عليها إلا الأهوجُ ، ولا يسلم منها إلا القليل: صحبة السلطان ، وائتمان النِّساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة ، وإنما شبَّه العلماء السلطانَ بالجَبَل الوعْر الذي فيه الثمار الطيبة، وهو معدِن السباع المخوفة، فالارتقاء إليه شديد، والمقامُ فيه أشدُّ وأهول " (ابن المقفع ،1982 ، ص 87).

والجدير بالملاحظة هنا أن شرب السم الأمر المؤدي إلى الهلاك حتما جاء في آخر المخاطر ، التي كان على رأسها صحبة السلطان ، ولا يمكن بأي حال أن يكون السلطان العادل هو المقصود ، لأنه أولا مفقود ، وثانيا لأن من اتصف بالعدل لا يمكن أن يلحق الأذى بأي أحد إلا من استحق العقوبة لجناية جناها، ولهذا فان صحبة السلطان المهلكة والمقصودة هي عين المثال الواقع آنذاك أي السلطان " المنفرد برأيه " و " المتوجس من غيره دوما " ، أما ما يلي ذلك من حيث الخطر فهو ائتمان النساء على الأسرار ، ولن يتم التطرق لهذا الآن بل سيتم تأجيله لحينه.

وبالنسبة لدمنة فما كان منه لدى سماع قول أخيه إلا أن رد عليه بأن :" لا ينبغي للرَّجل ذي المروءة أن يُرى إلَّا في مكانين ، ولا يليق به غيرهما : إمَّا مع الملوك مُكرَّمًا، وإمَّا مع النُّسَّاك متبتلًا " (ابن المقفع ،1982 ، ص 88)، فمع قيمتي المراءاة والكبر هناك قيمة أخرى مضمرة ألا وهي تقديم المنزلة مع الملوك – مع ما هو معروف عنهم من البطش والسطوة وخطر المصاحبة – على المنزلة مع النساك وليس الأمر بمستغرب في الحقيقة مدام الغرض منذ البداية مراءاة الناس فما يعظم في أعينهم طبعا هو جوار السلطان وصحبته .

أما فيما يخص الأمثال التي ضربها دمنة للأسد ، فان أول مثل كان مثل الثعلب والطبل ، وهي عن ثعلب سمع صوتا عظيما ، وهو صوت طبل معلق بشجرة إذا ماهبت الريح قرعت الأغصان فيحدث ذلك الصوت العظيم ، فاعتقد الثعلب أنه صيد ضخم ، ولما انقض عليه انشق و أدرك أنه أجوف ، وخلص إلى أن أضعف الأشياء ماكان عظيم الجثة قوي الصوت ، وظاهر المثل أن المقصود به هو صاحب الصوت الذي هابه الأسد ، لكن المضمر خلف هذه الكلمات أن الأسد هو المعني ، فدمنة كان يرى الأسد منذ البداية قوي بجنده "ضعيف برأيه" ، ولما سأله كليلة كيف عرف أن الأسد ضعيف الرأي ، أجابه دمنة من " شكله " (ابن المقفع ،1982 ، ص 86)، بل إن السياق الذي روى فيه دمنة المثل للأسد يؤكد ذلك ، ألم يستغرب خوفه من الصوت ، و اعتبر هذا الخوف علامة على ضعف القلب .

ولهذا تحديدا كان دوما مبدأ دمنة / المثقف أن الحجم يتعارض مع القدرة ، وما روايته لمثل الثعلب والطبل إلا ليؤكد رأيه هذا، لا ليطمئن الأسد ، فهاهو يقول لاحقا : " فإنَّ الأمُور ليست بالقوة والعِظَم، ورُبَّ ضعيف صغير قد بلغ بدهائه وحيلته ورأيه – حيث هنا تأخير الرأي وتقديم الحيلة والدهاء – ما يعجز عنه كثيرٌ من الأقوياء " (ابن المقفع ،1982 ، ص 98)، ومما يظهر به المثقف الممثل في شخص دمنة هو انتهاج الحيل لنيل الغايات فقد قرر كما مر سابقا أنه " بالحيلة والدهاء يمكن بلوغ ما يعجز عنه كثير من الأقوياء" ، ويقول في موضع آخر :" الاحتيال ربما أجزى ما لا تُجزي القوة " (ابن المقفع ،1982 ، ص 101)، وفي سياق معرفة دمنة بخوف الأسد من صوت خوار الثور ، فقد بادر باقتراح استطلاعه الصوت ، وذهب فعلا ، ثم عاد واخبره بأنه ثور " لا شدة له" وطمأن الأسد بعبارة تنم عن معرفة دمنة بضعف الأسد حيث قال له : " لا يهابنَّ الملك أمره ولا يُكبِرَن في صدره شيئًا منه، وأنا آتيه به حتى يكون له عبدًا سامعًا مطيعا "(ابن المقفع ،1982 ، ص 93) .

إن في العبارة الأخيرة " فاجعله لك عبدا سامعا مطيعا " تأكيد قوي من دمنة على قدرته في إخضاع الثور كليا للأسد بسمعه وطاعته ، ولكن ماذا لو كان دمنة أحد جنده ترى كيف كانت ستكون عبارته ؟ هي لن تعدو أن تكون مثلا : سأجعله لك عبدا ، أو ربما قد يضيف "ذليلا"، لكن " سامعا مطيعا" هذه لا تأتي إلا من قبل "داهية أريب" بتعبير الأسد ، لأن ما في منطق السمع والطاعة ليس في منطق العبودية وحده ، فالسمع والطاعة مع العبودية إيذان بالانكسار وتسليم للأمر مما يزيل أي احتمال للتمرد أو الخطر.

والمضمر في سياق هذه الحادثة أولا : أن صاحب الدهاء والعلم والأدب / المثقف وحده من لاحظ ضعف رأي الملك ، وأدرك تغير حاله " فقال دمنة يوما لأخيه كليلة :إني قد رأيتُ الملك أقام منذ زمان بمكان واحد لا يبرح منه، ففيم ذلك؟ " (ابن المقفع ،1982 ، ص 91) وأنه هو لا سواه أدرك بسهولة سبب تغير حال الأسد ، رغم كره الأسد لمعرفة دمنة السبب ، وأنه هو من بادر واقترح على الملك الذهاب نحو الصوت ليستطلع ، بل إنه دون مواراة يكشف علمه بضعف الأسد لدى اقتراحه أن يبقي بمكانه ، وهو من يقترح أن يأتيه به مع تطويعه إياه و نفذ ذلك

فعلا ، بل الآلية التي سرد بها الراوي الهيئة التي ذهب دمنة إلى الثور بقوله " غير هائب ولا متعتع " (ابن المقفع ،1982 ، ص 93) فيها إحالة واضحة على الازدراء بالأسد .

وأيضا من الجدير بالملاحظة الطريقة التي قدم بها دمنة الأسد للثور " قال دمنة هو ملك السباع ومعه جند كثير منهم " (ابن المقفع ،1982 ، ص 93)، إن في هذه الصياغة ما ينم عن القناعة أنه لا ميزة للأسد /الملك فلم يزد عن صفاته غير كونه ملك السباع ، ولشعوره بضعفه أضاف ومعه جنده كثير من جنسه ليدخل الهيبة في قلب الثور منه.

إن الرابط المضمر لهذه القصة من بدايتها إلى نهايتها هو نسقية المنطق الذي يحكم صورة المثقف فهو الملاحظ الدقيق لعيوب السلطان والقادر وحده على استغلالها واستثمارها وأيضا الخبير بما يناسب الحكم وما يقوم به ، وهو المتمرس بتطويع العامة لسلطانها.

هذا عن المثال الأول للمثقف الطموح المحتال ، أما المثال الثاني المخالف له وهو كليلة والذي حرص السارد على جعله صوت العقل الثاقب والحكمة ، فما كان منه حين عزم دمنة على الإيقاع بين الثور والأسد لما ناله الثور من الحظوة ، إلا أن قال له : " إن قدرتَ على هلاك شتربة في غير مشقة تدخلُ على الأسد فافعل، فإنَّ مكانه قد أضرَّبي وبك وبغيرنا من الجُند، وإن لم تستطع ذلك إلا بما ينغِّص الأسد، فلا تشترين ذلك بذلك ، فإنه غدرٌ مني و منك و لؤم و كفر " (ابن المقفع ،1982 ، ص102) .

إن ظاهر العبارة يبدو وكأن كليلة حريص على أن يكون مخلصا ، لأنه إن بدر منه غير ذلك فان هذا سيتنافي مع ما أراده السارد له ، لكن التأمل في ما وراء العبارة كفيل بكشف نقيض هذا الإخلاص لأنه أليس في موافقة دمنة على الإيقاع بين الثور والأسد خيانة للأسد ، بل إن خلق الإخلاص إن كان حقا أصيلا في نفس صاحبه ، فإنه يتعامل به مع الجميع ، وهذا ما لم يحدث ، أليس في موافقة دمنة على هلاك الثور غدر به ، والموافقة على الغدر غدر ؟ ، أليس في الغيرة على الثور وحسده على مكانته دليل على الأنانية ، وان نيل الحظوة لدى الأسد مراد لذاته لا لغيره كالنصح الصادق .

وملاك الأمر أن خوف كليلة ليس على هلاك الأسد لأنه غدر به ، بل الخوف من بطشه بهما إن كشف حيلتهما ، أليس هو المحذر لدمنة من صحبة السلطان والقائل أنه لا يجترئ عليها إلا أهوج وأنها كشرب السم للتجربة ، بل الأدهى من ذلك أن هذه الشخصية (كليلة) التي تم تقديمها كما ذكر سابقا على أنه "صاحب أدب" وجاء حديثه ملازما للنصح والحكمة ومجانبا للتهور ، إذ به يتنكر لأخيه بعد أن اكتشف الأسد مكيدته فقد شبهه بالحية وان السم يجري في لسانه مثلها " إنه لا شيء أشبه بك من الحية التي يجري من نابها السم ، وقد كنتُ لذلك من لسانك خائفًا مُشفِقًا، لقربك مني كارهًا، فإنَّ العُقلاء قد قالوا :اجتَنِب أهلَ الفُجور، وإن كانوا ذوي قرابتك " (ابن المقفع ، 1982 ، ص 126).

بل تخلى عنه قائلا : " (...) واهرُب من اللئيم الأحمق وأنا بالفرار منك والتنحّي عنك جديرٌ حقيقٌ..."،(ابن المقفع ،1982 ، ص 128) ،وقال له قاصدا إياه بهذا الحديث :" وصحبة الأشرار تورِثُ الشرَّ، كالريح إذا مرَّت على النتن حملت نتنًا، وإذا مرَّت بالطِّيبِ حملت طيبًا " (ابن المقفع ،1982 ، ص 128)، وبالعودة إلى دمنة الذي تم تقديمه على أنه المثقف الطموح لابد من الإشارة إلى تلك النصيحة التي قدمها للأسد حين كان يحاول إيهامه بطمع الثور بمكانته فقد قال له:" إذا عَرَف الملك من الرجل أنه قد ساواه في الرأي والمنزلة والهيبة والمال و التبَع فليصرَعْه ، فإنه إن لم يفعل كان هو المصروع " (ابن المقفع ،1982 ، ص 104).

لا جدال أن هذه النصيحة عامة لكل الملوك ، نصيحة تقتضي البطش بكل قوي خوفا على الملك ، ذلك أن الملك في ذلك العرف الثقافي مراد لذاته ، وبما أنه كذلك لا بد أن يسود منطق البطش والسطوة حتى يدوم الملك لصاحبه ، بل لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا مادام أن أساس ملكه أنه كان متكبرا منفردا برأيه .

ومما قاله دمنة عن هؤلاء الملوك عامة أيضا :" إنما مَثَلُهم — في قِلَّة وفائهم لأصحابهم وسخاء أنفُسهم عمَّن فَقَدوا منهم — مَثَلُ البغي كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه " (ابن المقفع ،1982 ، ص 110)، و رغم أن السياق الذي ذكر فيه دمنة هذا الحديث هو سياق تحميل الثور على الأسد لكن هذا لا يشفع إقحامه لصيغة التعميم ، وإلا إذا تمت قراءة هذا التعميم على أنه موقف مقرر سلفا من قبل دمنة ، ولكن دمنة ما هو إلا أداة بيد السارد المنتمي إلى عرف ثقافي معين تحكمه صورة نسقية من الملوك .

وأيضا مما يراه هذا المثقف العالم ذو الرأي والأدب أن الغدر في الأسد / الملوك طبع أصيل ، ألم يقل للثور شتربة : " إنَّ إرادة الأسد لما يريد ليس لشيءٍ مما ذكرت من تحميل الأشرار ولا غير ذلك، ولكنه الغدر والفجور، فإنه جبَّارٌ غدَّارٌ، أوَّلُ طعامه حلاوة، وآخره مرارة، بل أكثره سمٌّ مميت" (ابن المقفع ،1982 ، ص 112).

هذا عن صورة المثقف في الباب الأول باب الأسد والثور والتي ظهر فيها المثقف مستغلا محتالا ، داهية ، مصانعا منافقا ، والتي لم تتغير كثيرا فيما تلاه من الأبواب ، من ذلك رأي الغراب في باب البوم والغربان حيث رأى أن نفس العاقل لا تكره نفسه الخضوع لمن هو أقل منه لنيل مراده .

وأيضا مدح التملق في سياق عن رده على الملك حين سأله عن تصنعه مع البوم " قال الملك : لقد احتملت مشقة شديدة بتصنعك للبوم وتضرعك لهن" (ابن المقفع ،1982 ، ص 212) بل إنه ضرب له مثلا عن أسود احتال على ملك الضفادع فضمن رزقه ومعيشته، والأمر ذاته هنا أي تمجيد الاحتيال على الملك واستغلاله من أجل المنفعة الذاتية .

2.3 صورة المرأة / الأنثى :

إن أول موضع يتم فيه ذكر المرأة جاء على سياق التحذير منها، هذه الصيغة التي ستكون مدار الخطاب القصصي لاحقا عن المرأة ، فقد جاء أن العلماء قد قالت : " أمورٌ ثلاثة لا يجترئ عليها إلا الأهوجُ، ولا يسلم منها إلا القليل :

صحبة السلطان ، وائتمان النِّساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة " (ابن المقفع ،1982 ، ص 87) ، وأين احتمالية السلامة هنا إذا كان الأمر مساويا لشرب السم للتجربة إلا إذا تم فهم العبارة دون الإيهام الذي تمارسه وهي أنه لا احتمال للنجاة والسلامة مع السلطان ولا النساء ، تماما كما لا أمل بالنجاة بعد شرب السم .

وكما ذكر سابقا فإن الخطاب القصصي المؤسَس عن المرأة لا ينفك أن يقرر مجموعة من الصفات للمرأة ، والتي تستوجب الحذر منها كما ورد في التحذير السابق ، إن من أولى القصص التي بطلتها امرأة، هي تلك القصة المعنونة ب " مثل الناسك واللص" (ابن المقفع ،1982 ، ص 94)، والملاحظ هنا إقصاء المرأة من العنوان رغم المكانة المحورية لها في الحكاية ، وتقديم اللص رغم انتهاء دوره منذ الأسطر الأولى ، حيث تظهر المرأة بمظهر :

- **الغادرة والقاتلة** : حيث كرهت زواج جاريتها،واحتالت لقتل الرجل الذي سيتزوجها لتبقي بخدمتها (ابن المقفع ،1982 ، ص 94).
- **الخادعة لزوجها** : امرأة الاسكافي التي تستقبل رجلا في بيتها يكره زوجها وجوده ويرفض تزويجه ابنتهما (ابن المقفع ،1982 ، ص 95) .
- **المعينة على الخداع** :امرأة الحجام التي كانت الوسيط بينهما(ابن المقفع ،1982 ، ص 97) .
- **الخادعة لزوجها مرة ثانية** : امرأة الاسكافي التي ادعت الإصابة في أنفها من طرف زوجها ضربها ثم الدعاء السلامة من الإصابة والشفاء لأن زوجها قد ظلمها وان الله قد نصرها عليه (ابن المقفع ،1982،ص 97).
- **الخادعة لزوجها والمفترية عليه**: امرأة الحجام حين ادعت أن زوجها هو من جدع أنفها.
- **الجميلة الخائنة** : في مثل المرأة والمصور والعبد ، حين كان هناك أحد التجار وله امرأة ذات حسن وجمال ، وكان إلى جوارهم مصور ماهر ، وكان خليلا لامرأة التاجر (ابن المقفع ،1982 ، ص 140).
- **الحمقاء المعيرة بما فيها** : في مثل الرجل وامرأتيه (ابن المقفع ،1982 ، ص 149).
- **اللوامة لزوجها** : في مثل السمسم المقشور وغير المقشور (ابن المقفع ،1982 ، ص 168).
- **المخلصة بالعقل** : رغم أنها المرة الوحيدة التي تظهر فيها المرأة كحكيمة مخلصة بعقلها فإن في ذلك لا يمنع من قتلها إن أخطأت خطأ بسيطا، وذلك في قصة إيلاذ و بلاذ وإيراخت ، فهي قد أنقذت حياة الملك ومملكته وهذا لم يمنع الأمر من بقتلها حين غارت الملك من زوجته الثانية ورمت على رأسه طبق الأرز ، و حتى الطريقة التي ندم بها الملك على ذلك ، لم يثني فيهل على رجاحة عقلها ولا حكمتها ولا حبه له ، بل " ذكر جمالها فاشتد أسفه عليها " (ابن المقفع ،1982 ، ص 246)، بل إن وزيره حين حاول إيهام الملك بأنه قد قتلها فعلا وحاول تسليته قال له " أنت أيها الملك عندك ستة عشر ألف امرأة تدعُ أن تلهوَ بهنَّ (حيث هنا منطق التعامل مع المرأة مبني على التسلية) وتطلب التي لا توجد " (ابن المقفع

،1982 ، ص 247)، و هذا الوزير " الحكيم" ما كان منه حين أمر الملك بقتلها إلا أن أخرها إلى حين ، فإن ندم الملك أعادها له ، و " إن لم يذكرها ، ولا اشتاق إليها ، أمضيت أمره فيها "(ابن المقفع ،1982 ، ص 246) .

هذا عن صورة المرأة بإيجاز ، أما صورة أنثى الحيوان والتي تحيل طبعا إلى المرأة فقد وردت كما يلي:

- **المخلصة بالحيلة:** في مثل الأرنب والأسد .
- **الحمقاء الجانية على نفسها:** مثل القملة والبرغوث (ابن المقفع ،1982 ، ص 101).
- **الناصحة التي لا تسمع نصيحتها** : في مثل وكيل البحر والطيطوي (ابن المقفع ،1982 ، ص 107).
- **الغافلة التي لا تسمع نصيحة** : في مثل السلحفاة والبطتين (ابن المقفع ،1982 ، ص 118).
- **صاحبة النصح المتأخر** : أم الأسد في باب الفحص عن أمر دمنة (ابن المقفع ،1982 ، ص 131) .
- **الحكيمة التي تتدارك بحكمتها سوء تقديرها** : في مثل الحمامة المطوقة – التي عميت عن الشرك – والجرذ والظبي والغراب (ابن المقفع ،1982 ، ص 157).
- **المخلصة بالحيلة** : مثل الأرنب وملك الفيلة (ابن المقفع ،1982 ، ص 191) .
- **المحتالة لصديقتها** : ذلك في باب القرد والغيلم (ابن المقفع ،1982 ، ص 217).
- **المحتالة على زوجها وصديقه** : وذلك أيضا في باب القرد والغيلم (ابن المقفع ،1982 ، ص 217).
- **صاحبة النصح المتأخر** : أم الأسد في باب الأسد وابن آوى الناسك (ابن المقفع ،1982 ، ص 287) .
- **الظالمة لغيرها** : في باب اللبؤة والأسور والشعهر (ابن المقفع ،1982 ، ص 319) .
- **المظلومة من طرف زوجها** : وذلك في مثل الحمامتين (ابن المقفع ،1982 ، ص 246) .

وعليه فإن صورة الأنثى هنا مختصرة في أبعاد معينة ، لا تتعداها إلى سواها ، وهي : الاحتيال والغفلة والنصح المتأخر ، بل إن نسقية هذه الصورة تظهر علنا في الأقوال المعممة عن النساء، والمبثوثة في ثنايا الخطاب القصصي ومن ذلك :

– " أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء :ظلُّ الغمام، وصحبة الأشرار، وعشق النساء، والثناء الكاذب، والمال الكثير" (ابن المقفع ،1982 ، ص 176)،فهنا تم وضع النساء بين شرين شر صحبة الأشرار و شر النفاق.

– " قلَّما ظفر أحد يبغي ، وقلَّ من حرص على النساء فلم يفتضح وقلَّ مَن أكثر من الطعام فلم يسقَم ، وقلَّ من ابتُليَ بوزراء السوء إلَّا وقع في المهالك " (ابن المقفع ،1982 ، ص 212) ، فهنا وُضعت العلاقة

بالنساء بين شر الطغيان وشر الوقوع في الصائب المهلكة ، وتم جعل الحرص عليهن فضيحة أسوء من المهالك.

– " العاقل إنما يَعُدُّ أبويه من الأصدقاء ، ويعدُّ الإخوة من الرفقاء ، والأزواج إلفًا ، والبنين ذِكرًا، والبنات خصيمات ، والأقارب غرماء " (ابن المقفع ،1982 ، ص ص 282–283)، والملاحظ هنا كيف أن العرف الثقافي آنذاك مازال لم يتصالح مع فكرة إنجاب البنات ، ويرى أنه من العقل والحكمة اعتبارهن أعداء ، وبالتالي سيطرة هاجس التخلص منهن في حين أن الذكر هوذِكْرٌ .

– " وشرُّ الأزواج التي لا تُواتي البعل " (ابن المقفع ،1982 ، ص 286)، فهنا اختصار المرأة في بعد الزوجة دائما لا الأم أو الأخت أو البنت ، و ثانيا تكريس قيمة الخضوع للزوج لا المشاركة معه، وأيضا غياب أي حكمة أو قول عما ينبغي أن يقوم به الزوج تجاه زوجته ، بمعنى غياب تقويم لسلوكه.

– " (...)إنَّ المرأة بزوجها، والولد بوالديه، والمتعلم بالمعلِّم، والجند بالقائد، والناسك بالدين، والعامة بالملوك، والملوك بالتقوى، والتقوى بالعقل، والعقل بالتثبُّت " (ابن المقفع ،1982 ، ص ص 294–295) ، في هذه الصيغ الحصرية قد تم البدء بالمرأة هنا، ولاحظ كيفية تقرير اختزال المرأة في بعدي أنوثتها والرجل .

– إن العبارة التالية تلخص كل ما قيل سابقا وتدل بوضوح عليه من نسقية الصورة السلبية للمرأة ، والتي تختزلها كما ذكر من قبل في بعدي الأنوثة والرجل قال ايلاذ – الوزير المتعبد الناسك – : " ثلاثة هنَّ أصفار : البحر الذي ليس فيه ماء ، والأرض التي ليس فيها ملك ، و المرأة التي ليس لها زوج "(ابن المقفع ،1982 ، ص 248) ، أي أن المرأة تحظى بوجودها وتكتسب القيمة وتتجاوز طور اللاقيمة – الصفر– من خلال الزوج فقط ، وما قبله وما عداه فهي صفر.

3.3 صورة المتعبد الناسك :

لا ينفك الخطاب المعقود حول النساك من الإصرار على تعارض التعبد مع الفطنة فالناسك يظهر أكثر من مرة بمظهر المخدوع من ذلك :

– **المخدوع** : حكاية الناسك الذي صحبه لص من أجل الطمع فيما حصل من ثياب فاخر وبالفعل سرق منها : مثل الناسك واللص (ابن المقفع ،1982 ، ص 94) .

– **المغلوب على أمره** : في قصة النساك والجرذ الذي أتعبه (ابن المقفع ،1982 ، ص 166).

- **المخدوع والمحتال عليه** : في مثل الجماعة والناسك وعريضه ، حيث اشترى هذا الناسك عريضا ضخما– وقد قدم الخطاب هذا العريض بصفه "ضخما" – ليجعله قربانا ، فبصر به قوم من المكرة ، وأخبروه أنه يقود كلبا فما كان منه إلا تصديقهم وأطلقه من يده ليأخذوه (ابن المقفع ،1982 ، ص 198).

- **ائتمار الأشرار عليه** : في مثل الناسك واللص و الشيطان ، حيث أراد اللص سرقة بقرته ، أما الشيطان فأراد اختطافه ، لولا أنهما اختلفا مع بعض لنالا مرادهما (ابن المقفع ،1982 ، ص 210).
- **المنخدع بالعجلة وظواهر الأمور**: في مثل الناسك وابن عرس، حيث قتل الناسك ابن عرس لما رآه ملوثا بالدم معتقدا أنه قد قتل ابنه ، وهو حقيقة قد قتل حية أراد أن تلدغ ابن الناسك(ابن المقفع ،1982 ، ص 229).
- **الناسك المخدوع بأحلام يقظته** : في مثل الناسك وجرة السمن والعسل(ابن المقفع ،1982 ، ص 232).
- **الناسك المُفترى عليه** : في باب الأسد وابن آوى الناسك (ابن المقفع ،1982 ، ص 287).

هناك ملاحظة جديرة أيضا بالاهتمام ، وهي إصرار الخطاب المبني عن الناسك حول ثنائية ضدية أخرى وهي تعارض التعبد والنسك مع إتيان الرزق بالجهد الخاص ، بل إن كل ناسك يرد ذكره إلا ويبتم لإظهاره مرزوقا من طرف غيره ، ويلح الخطاب القصصي على ذلك إلحاحا بشدة ، ومن ذلك:

- في مثل الناسك واللص : ورد ما يلي " زعموا أن ناسكا أصاب من بعض الملوك كسوة فاخرة ".(ابن المقفع ،1982 ، ص 94) .
- في مثل الحمامة المطوقة والجرذ والظبي والسلحفاة : "كان أولُ منزلي في مدينة يقال لها ماروت، في بيت رجلٍ من النسَّاك لم يكن له عيال، وكان يؤتى كل ليلة بسلَّةٍ من طعام، فيتعشَّى منه ثم يضعُ فيها بقيته و يُعَلِّقها " .(ابن المقفع ،1982 ، ص 166) .

في مثل الناسك واللص والشيطان : " قال الوزير : زعموا أن ناسكا أصاب بقرة حلوبا ..." (ابن المقفع ،1982 ، ص 202).

4. خاتمة:

هذا عن أهم الأنساق الثقافية المضمرة في ثنايا قصص كليلة ودمنة التي أزيح اللثام عن بعضها ، هذا الخطاب الذي ظل علامة ثقافية وجمالية أولى في الثقافة العربية مرت عبرها الكثير من قيم الهيمنة للقوى الضاربة وإقصاء للفئات الأخرى وتجاوز لقيم العدالة والتكافؤ ، هذه الأمور التي أمكن الكشف عنها بأهم أدوات النقد الثقافي وهي نظرية الأنساق المضمرة ، مما يفتح مجال واسعا لمزيد من عمليات استقراء واستنطاق للخطابات التراثية وإعادة اكتشاف لمخزونها ، دون الاعتماد على منطق محاكمتها بغرض إقصائها ، وإنما بناء وعي أعمق بمكنوناتها وتقصي جذور أخلاقيات و تصورات نرفضها دون الإدراك بأنها مجتذرة في خطابات مازالت متداولة إلى يومنا هذا تحتاج قراءتها بمنهج صحيح يضعها في إطارها الصحيح دون أن يتعدى تأثيرها إلى سواه .

5. قائمة المراجع:

1– الغذامي ،عبد الله ، 2005 ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 3 .

2– ابن المقفع ، تح : عبد الوهاب عزام ، 1982 م ،كليلة ودمنة ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ، ، ط 2 .

3– ابن منظور الإفريقي المصري ،أبي الفضل جمال الدين مُحَّد بن مكرم ، 1994 م ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط3 .